

## الفصل الثامن

### إنتشار الإسلام في شرق أفريقيا

كان العرب من معين وسبأ وحمير على اتصال دائم بساحل أفريقيا الشرقية ، وكانوا يجلبون من تلك الأنحاء سلعا مهمة لعل أعظمها قيمة الذهب والعاج والرقيق . وقد أثبتت البحوث الحديثة أن العرب أدركوا منذ تلك العصور القديمة أهمية موقع زنبار فاتخذوها مخزنا أسلحتهم ومنها توغلوا في داخل القارة إلى البحيرات الكبرى . ويستدل علماء الأجناس من ملامح السكان في إقليم بحيرة فكتوريا على أن توغل العرب في تلك الناحية حدث من زمن بعيد .

وجاء الإسلام فزاد هذا الاتصال بفضل هجرات متتابة أهمها أن قيام الدولة العباسية أدى إلى نفور بني أمية ومن يتصلون بهم من الإقامة قريبا من العباسيين . ففر عبد الرحمن الداخل إلى الأندلس ، وتأثر غيره انتجاع سقطرى بحيث يكون بعيداً عن متناول العباسيين . ولم يمض إلا زمن يسير حتى صارت هذه الجزيرة سوقا تجارية هامة سرعان ما اتصلت بشرق أفريقيا وتلا هذه الهجرة القرشية هجرة جاءت من جنوب بلاد العرب وأخرى من الجنوب الغربي لبلاد فارس وهاتان الهجرةتان نزلتا بالساحل الشرقي من

أفريقية وتكونت على أثر نزولها سلطنات إسلامية صغيرة وعظم على أثر ذلك شأن مقدشو ومبسة وكلوة . وما زال النفوذ الإسلامي ينتشر حتى بلغ سُفاله قبيل إغارة البرتغال . وبقيت هذه المستعمرات العربية تقاتل البرتغال ما ينيف على ١٥٠ سنة . وانتهى هذا النضال بانتصار البرتغال بفضل سيادتهم البحرية في تلك الجهات .

وإذ ذلك أبقى العرب الخضوع لهؤلاء الأوربيين واحتمل استبدادهم وسوء إدارتهم ، فحمل كل منهم أهله وكل منقولاته واتجه إلى داخل القارة مؤثراً مواجهة الوحوش المفترسة والسكان المتربصين على احتمال الضيم .

واختلط هؤلاء المهاجرون بأهل البلاد واتهم زعماء السكان وملوكهم وجود هؤلاء المتحضرين في بلادهم فأخذوا منهم مستشارين وإداريين كانوا دعاة للدين الإسلامي في هدوء ورزانة فأضاءوا بذلك القارة المظلمة . وفي ذلك يقول السير توماس ارنولد : إن الشيخ المسلم يحيط به عدد من الاتباع أكثر ممن يحيطون بالمبشر المسيحي ؛ وذلك على الرغم من قلة مجهود المسلم .

أما البرتغاليون فسرعان ما نسوا أنهم كانوا دعاة المسيحية ، فانقلبوا حرباً على الأهلين وعاملوهم بالقسوة وعكفوا على تجارة الرقيق فانقضى عليهم قرنان من الزمان ( سنة ١٥٠٣ — سنة ١٧٠٣ ) لم يعملوا شيئاً يذكركر لمصلحة السكان ، كما يشهد بذلك الأوربيون أنفسهم إذ يقولون أنهم شجعوا تجارة الرقيق واسرفوا في تقميل الأهلين ونشروا شرب الخمر واخفقوا في التبشير بالمسيحية .

ولما ضعف شأن البرتغال انقض عليهم سلطان مسقط بين ١٧٣٠ و ١٧٤٠ فانزع منهم جزيرة زنبار والساحل المواجه لها وما يليه جنوباً إلى رأس دلفادو . ويشهد الأوربيون بأن عودة زنبار إلى أيدي العرب جعلتها مفتاحاً لداخل أفريقيا ، على حد قول أحدهم : « مهما تكن وجهتك في داخل البلاد فلا بد من الابتداء من زنبار » وعبر العرب عن ذلك بقولهم : « عند ما تزمر في زنبار ترقص كل أفريقيا إلى البحيرات الكبرى » .

وإذا كان بعض هؤلاء المساميين قد أعماه الشره فاشتغلوا بتجارة الرقيق ، وبالتالي رغبوا عن نشر الإسلام لأنه يحرم بيع المسلم ، فقد وجد إلى جانب هؤلاء أناس متحمسون لدينهم ، جعلوا ينقذون الأهلين من الضلال بمزاملتهم بقصد تعديل طرق معيشتهم ، وتزوجوا منهم فرفعوا مستواهم الاجتماعي . ويمكن بعض هؤلاء المتحمسين من الاتصال بملوك تلك البلاد واقنعوهم باتباع الشريعة الغراء بعد أن كانوا يسايرون أهواءهم الجاحمة .

فلما تنبّهت أوربا إلى حاجتها لمستعمرات في أفريقيا وهبت تتنازع على اقتسامها في القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين أنشأ الإنجليز والألمان السكك الحديدية من دار السلام على الساحل إلى بحيرة تنجانيقا ومن ممبسة إلى السواحل الشرقية من بحيرة فكتوريا وبحيرة ابراهيم التي سميت بعد ذلك ببخيرة تشوجا . وكذلك عبدوا الطرق وسيروا البواخر في الأنهار كلما أمكن ذلك . فاستغل العرب هذه الوسائل الحديثة للدخول في قلب القارة واتخذ منهم الألمان والإنجليز معلمين وموظفين وشرطة وجنداً إذ وجدوهم أصلح لذلك من الأهلين . وبلغ من تفضيل الإنجليز في كينيا للمساميين أن كانوا يوزعون

المصاحف على الأهلين ويقاومون التبشير المسيحي لأنه يفسد أخلاق السكان .  
وأيقن الأهلون ان الإنجليز يؤثرون المسلمين بالوظائف والكرامة فاقبلوا على  
الإسلام بحيث كانت قرى بأكملها تعتنقه في يوم واحد .

وفي سنة ١٨٦٠ قرر الإنجليز في نبال زراعة قصب السكر وبان لهم أنه  
لا يمكن استغلال مزارع القصب باستخدام عمال اوربيين بسبب ارتفاع  
أجورهم ، وأن العمال من أهل البلاد ليسوا من المهارة بحيث يقومون بهذه  
الزراعة ، وأنه لا يمكن تعليمهم هذه المهنة فقررروا استدعاء أناس من أهل  
الملايو وأهل الهند للنبوض بهذه الزراعة في نبال ، يعملون بعقود لمدة محددة ،  
على أن يعودوا لبلادهم عند انتهاء تلك العقود .

إلا أن هؤلاء العمال ما كادت تنتهي عقودهم حتى وجدوا أن من  
مصالحتهم البقاء بتلك البلاد فاستقروا بها على اعتبار أنهم مواطنون أحرار ؛  
واحترفوا الأعمال التجارية والمين الدقيقة وانتشروا في اتحاد جنوب أفريقية  
وزاد عددهم أضعافاً مضاعفة بهجرات جديدة أكثرها من الهند وغيرها من  
دول آسيا .

وهؤلاء المسلمون نشروا دينهم بين السكان الأصليين ، ورحب هؤلاء  
السكان بهذا الدين ، فأصبح في المدن الكبيرة وفي القرى جماعات مهمة من  
المسلمين لا تفتأ تنشر الدعوة الإسلامية في تعقل وهدوء مما حمل المبشرين  
المسيحيين على الشكوى منهم . وعبر عن ذلك المبشر الأمريكي زويمر بقوله :  
« إن مدينة الرأس بها مالا يقل عن ٢٣ مسجداً ، وإن الكتب الإسلامية  
ترجمت إلى لغة الزولو وغيرها من لغات السكان الأصليين . »